﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ١٣٣ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٣٤ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣٥ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦﴾

[الشعراء: 132 - 136]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

مطالبتهم بالتَّقوى بعد التَّوبيخِ والتذكير بنعم الله تعالى عليهم

في الآيات السّابقة أمر رسول الله هودٌ ﷺ قومه بتقوى الله موبِّخًا إيّاهم على ما هم فيه من العبثِ بما مكَّنهم الله فيه، فبنوا القصورَ الشّاهقة، وأنشؤوا الأعلامَ على المرتفعات، وأوتوا من القوَّة ما كان سببًا في بطشهم وقسوتهم بالنّاس، فناسب هنا أن يُعيد عليهم الأمرَ بتقوى الله وطاعة رسوله؛ لأنَّ الله سبحانه هو المنعمُ عليهم بالأنعام والبنين والجنّات والعيون، فكان ذلك قوَّةً حياتيَّةً واقتصاديَّةً عظيمةً مُضافةً إلى قوَّتهم وسطوتهم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَمَدَّكُم﴾: (مَدَّ) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على جَرِّ شَيءٍ في طولٍ، واتِّصالِ شَيءٍ بِشَيءٍ في اسْتِطالَةٍ، كما أُطْلِقَ على بَسْطِ الجِسْمِ وتَطْويلِهِ، ثُمَّ اسْتُعيرَ لِلزِّيادَةِ مِنْ شَيْءٍ، تقولُ: مَدَدْتُ الشَّيءَ أَمُدُّهُ مَدًّا[1]، ومدَّ اللّهُ الأَرضَ يَمُدُّها مَدًّا: بَسَطَها وسَوّاها[2]، والمَدَدُ والإمداد: ما أمددتَ بِهِ قومَك في حَرْب أو غير ذلك من طَعام أو أَعوان[3]، والمَدُّ في الآية مقصودٌ به البَسْطُ والسَّعَةُ.

2) ﴿وَجَنَّٰتٖ﴾: (جنّ) أصلٌ واحدٌ، وهو السَّتْرُ والتَّسَتُّرُ، والجَنَّةُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مد)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 82.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (مدد).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (مد).

ما يَصيرُ إليها المُسلمونَ في الآخرةِ، وهي ثوابٌ مستورٌ عنهم اليومَ[1]، والجنَّةُ أيضًا: البُستان، ويُقالُ: هي النَّخل الطّوال، وكلُّ شجَرٍ مُتكاثفٍ يستر بعضه بعضًا؛ فهو جنَّة، وقيل: لا تكون في كلام العرَب جنَّةٌ إلّا وفيها نخلٌ وعِنبٌ، وإلّا فهي: حديقة[2]، والمُرادُ بالجنّات في الآيةِ: الحَوائطُ الَّتي تُشَجَّرُ بالنَّخيلِ والأعنابِ[3].

3) ﴿وَعُيُونٍ﴾: (عين) أَصْلٌ واحِدٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على عُضْوٍ بِهِ يُبْصَرُ، ويُنْظَرُ، ثُمَّ يُشْتَقُّ منه، قالَ الخليلُ: العَيْنُ النّاظِرَةُ لكُلِّ ذي بَصَرٍ، والعَينُ تُجْمَعُ على: أَعْيُنٍ وعُيونٍ وأَعْيانٍ[4]، ويُستعار العَيْنُ لمعانٍ هي موجودة في الجارحة بنظراتٍ مختلفةٍ، واستُعير للثَّقب في المزادة تشبيهًا بها في الهيئة، وفي سيلان الماء منها، فاشتُقَّ منها: سقاء عَيِّنٌ ومُتَعَيِّنٌ؛ إذا سال منها الماء، ويُقال لمنبع الماء: عَيْنٌ تشبيهًا بها لما فيها من الماء، ومن عَيْنِ الماء اشتُقَّ: ماءٌ مَعينٌ، أي: ظاهرٌ للعيون، وعَيِّنٌ، أي: سائل[5]، والمقصودُ بالعيون في الآيةِ: جَمعُ عَيْنٍ، وهو ثُقْب يَخرجُ منه الماءُ مِن الأَرْضِ.

4) ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: أصلُ اليوم: الواحِدُ من الأَيّام، ثُمَّ يستعيرونه في الأَمرِ العظيم، ويقولونَ: نِعْمَ فُلانٌ في اليوم؛ إذا نَزَلَ[6]، واليومُ أيضًا: مِقْدارٌ من الزَّمانِ، أَوَّلُهُ طُلوعُ الشَّمسِ إلى غُروبِها[7]، وأُطْلِقَتِ الأيّامُ على ما يقعُ فيها مِنَ الأحداثِ العظيمةِ، والمُراد بـ ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: يجوزُ أن يكون عذابًا في الدُّنيا توعَّدهُمُ اللّه به على لسانه، ويجوزُ أن يُريدَ به عذابَ يومِ القيامةِ، أَي: عظيم ما يَحصُلُ فيهِ من الأهوال[8].

5) ﴿سَوَآءٌ﴾: أصلُ (سوي) يدلُّ على استقامةٍ واعتدالٍ بَيْنَ شيئَيْنِ، يُقالُ: هذا لا يُساوي كذا، أَي: لا يُعادِلُهُ، وفُلانٌ وفُلانٌ على سويَّةٍ مِنْ هذا الأَمرِ، أَيْ: على سواءٍ[9]، فالسَّواءُ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جن).
(2) الخليل، العين، وابن عباد، المُحيط، وابن سِيدَه، المُحكَم: (جنّ).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 135.
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عين).
(5) الراغب، المُفردات، والسّمين، عُمدةُ الحُفّاظ: (عين).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يوم).
(7) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والرّاغب، المُفردات: (يوم).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 170.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سوى).

العدلُ، قال الله تعالى: ﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ﴾ [الأنفال: 58]، أي: على حُكم العدل والإنصاف[1]، وسَواءُ الشَّيءِ: وسَطُه؛ لاسْتِواءِ المسافةِ إلَيْه مِنَ الأَطْرافِ[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٥٥﴾ [الصّافّات: 55]، وسواءُ الشَّيء: غيره[3]، والمقصود بـ﴿سَوَآءٌ﴾ في الآية الكريمة: متساوٍ عندنا، أوعظتَ أم لم تعظ؟

6) ﴿أَوَعَظۡتَ﴾: أصلُ (وعظ) يدلُّ على التَّخويف، والعِظَةُ: هي الاسمُ منه، قالَ الخَليلُ: هو تذكيرُك إيّاه الخيرَ ونحوَه ممّا يرقُّ له قلبُهُ[4]، والواعِظُ: النّاصِحُ[5]، ويأْتي الوَعْظُ بِمعنى الأَمرِ بِالطَّاعَةِ والتَّوْصيَةِ بِها، فيُقال: وعَظَهُ؛ إذا أَمَرَهُ، ووَصَّاهُ بِالطَّاعَةِ، واتَّعَظَ فُلانٌ، أيْ: قَبِلَ المَوْعظَة، وكَفَّ نَفْسَهُ عن الخَطَأِ[6]، والمقصودُ بالوعظ في الآيةِ: كلامٌ فيه نهيٌ وتحذيرٌ مِن مكروهٍ وترغيبٌ في ضِدِّهِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مهمَّةُ الرُّسل والأنبياء تبليغُ الرِّسالات ومَحاجَّةُ الكفّار

بعد نهي هودٍ قومَه عن تلك الرَّذائل؛ أمرهم بتقوى الله وطاعته وشكرِهِ على نِعَمه، فقال: واتَّقوا عقابَ الله بطاعتكم إيّاه فيما أمركم بِهِ، ونهاكم عنه، فابتعدوا عن اللَّعب واللَّهو وظُلم النّاس والفساد في الأرض، واحذروا سخطَ مَن أعطاكم من عنده ما تعلمون من الأنعام والبَنين والبساتين والأنهار، تتمتَّعون بها كما شئتم حتى صرتم مضربَ الأمثال في الغِنَى والثَّروة والزُّخرف والزّينة، فاجعلوا كِفاءَ هذا عبادةَ مَن أنعم بها وتعظيمه وحدَهُ.

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (سوى).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (سوى).
(3) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (سوى).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (وعظ).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (وعظ).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (وعظ).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ العطف في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم﴾:

الواو عاطفةٌ في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ﴾؛ إذ بيَّن سبب أمرهم بتقوى الله كونه سبحانه أمدَّهم بما يعلمون، والحقيقة أنَّ "الواو تقتضي تحقيقَ الوصف المُتقدِّم، وتقريره يكون في الكلام مُتضمِّنًا لنوعٍ من التَّأكيد من مزيد التَّقرير"[1].

سِرُّ إعادةِ فعل التَّقوى:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ﴾، أي: بالذي تعرفونه من النِّعم[2]، وأعاد التَّقوى؛ لأنَّها هي حصيلةُ الإيمان ونتاجه، فلا تقوى بلا إيمانٍ، فذكرَ هودٌ التَّقوى في أربعة مواضع من كلامه، فكانت أوَّل ما خاطَبَ به قومه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، وعرَّفهم بأنَّه رسول الله الأمين في رسالته، ثمَّ قال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾؛ لأنَّ كونه رسولًا لهم أمينًا على الرِّسالة يجعلُهُ حقيقًا بأن يطيعوه، ويؤمنوا به، وبعد أن أنكر عليهم أعمالهم؛ أمرهم الثّالثة بتقوى الله، فقال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، وكرَّر في الرّابعة: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ﴾، فذَكَرَ عظيمَ فضلِ الله عليهم، وأن قوَّتهم وجبروتهم هذا نابعٌ عن النِّعَم العظيمة التي وهبها الله لهم.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِىٓ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾، لم يأتِ الخطاب على صيغة (واتَّقوا الله) أو (واتقوا ربكم)؛ ليدُلَّ على أنَّ الذي أنعم عليكم هو الذي سيُعذِّبكم؛ إن لم تؤمنوا، وبذلك أحرجهم؛ ليؤمنوا بمَنْ أنعم عليهم هذه النِّعَم، ثمَّ ختم الآية بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ

الـدَّعـوةُ إلى تقوى مَنْ تفضَّل عليهم بالحياة المُتْرَفَة

(1) ابن قيّم الجوزيّة، بدائع الفوائد: 1/ 191.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 107.

عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وفي الآية مقابلةٌ بين حال النَّعيم وحال العذاب العظيم[1]، وفائدة الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ هو بيانُ فضلِ الله عليهم في تخصيصِهم بهذه النِّعم التي لا تخفى، ولو نُزِعت منهم؛ لانتهت عظمتهم، وفي ذلك تعريضٌ بهم لإنكارهم عظيمَ فضلِ اللهِ عليهم.

إيثارُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿أَمَدَّكُم﴾ مادَّةً وصيغةً:

توالي النِّعَمِ على قومِ هودٍ

دلَّ الفعلُ الماضي على الأفضال السّابقة لله سبحانه عليهم مع ما هم فيه من البطرِ والتَّرف والغفلة عن الله، فذكَّرهم ببعض تلك الأفضالِ وما أمدَّهم به من الرِّزق والخير ومقوِّمات الحياة وما يضمن لهم راحة وسعادة، فدلَّ فعل الإمداد على النِّعم التي تأتيهم تترى؛ كأنَّما قد انسابت عليهم من كلِّ جانبٍ.

بلاغةُ الإجمالِ في قوله: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾:

المبالغةُ في بيان كثرة النِّعم

بالغ هود ﷺ في تنبيه قومه إلى نِعَم الله، حيث أجملَها، ثمَّ فصَّلها مستشهدًا بعلمهم، وذلك أنَّه أيقظهم من غفلتهم عنها حين قال: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾[2]، ولعلَّ من عظيم نكتة الإجمال الدَّلالةَ على كثرتها، فهي نِعَمٌ لا تُعدُّ، ولا تُحصى، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النّحل: 18]، فأجملها؛ ليحصرها جميعًا بعلم النّاس، وما يمكن أن يتذكَّروه، أو يعدّوه من تلك النِّعَم، ثم ذكر لهم أمثلة منها، فقال: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾.

معنى (الباء) و(ما)، وإيثار (العلم) مادَّةً وصيغةً:

اختلاطُ حياتِهم بالنِّعم

في قوله: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ أفاد حرف (الباء) الإلصاقَ والاختلاط، فكأنَّما النِّعمُ قد أُلصقت بهم، وخالطت حياتهم، فلا تُعرف حياتهم إلّا بها، وأصبحت النِّعمُ معروفةً كحقٍّ من حقوق الحياة عندهم، و(ما) بمعنى (الذي)، أي: بالذي تعرفونه من النِّعم؛ فـ(ما)

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 331.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 331، والنّيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 280.

موصولة، والعائد محذوفٌ والعلم بمعنى المعرفة[1]، والاستشهاد بعلمهم في قوله: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ دلَّ على علمهم برزقِ الله وفضلِه عليهم[2]، فأوكل معرفة تلك النِّعم إلى علمهم؛ دالًّا بذلك على المبالغة في كثرتها؛ إذ إنَّهم مهما عدّوا من النِّعَم؛ فلن يُحصوها.

بلاغةُ الفصلِ في قوله: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ﴾:

قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ﴾، فُصِلت الجملة الثّانية عن الأولى؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ﴾: مُفسِّرة لما قبلَها[3]، أو لأنَّ الثّانية بمنزلة بدلِ البعض؛ وأنَّ ما يعلمونه يشملُ ما في الجملة الثّانية مِنَ النِّعم الأربع، وغيرها من سائر النِّعم، ومن ثمَّ لم يعطف بين الجملتَيْن بالواو، لقوَّة الرَّبط بينهما، فبين الجملةِ والتي قبلَها كمالُ اتِّصال، وقد خصَّ هذه النِّعم بالقول؛ لأنَّه سبقها بقوله: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾؛ وهذه النِّعمُ يعلمُها كلَّ واحد، فهي من النِّعمِ العظيمة الظاهرة للنّاس جميعًا.

ذَكَرَ لهم بعضَ النِّعم التي يعلمونها

دلالةُ ترتيب العطفِ ﴿بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾:

في قوله: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ بدأ بذِكر الأنعام؛ لأنَّها تحصل بها الرّياسة والقوَّة على العدو، فالغِنَى الذي لا تكمل اللَّذة بالبنين وغيرهم في الأغلب إلّا به، والأنعام أحبُّ الأموال إلى العرب، ثمَّ ذكر البنين؛ لأنّهم مُعينوهم على الحفظ والقيام عليها، ومن ذلك يُعلم وجهُ قرنهما[4]، ووجهُ قرنِ الجنّات والعيون في قوله تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ ظاهر، فالجنّات يحصل بها التَّفكُّه والتَّنزُّه، ﴿وَعُيُونٍ﴾ بمائها يكمل النَّماء[5]، وكذا وجه قرنهما مع الأنعام[6].

بالأنعام تحصل الرياسة والغنى، وبالبنين حفظهما، وبالجنات والعيون يحصل التَّفكُّه

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 107.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 331.
(3) العكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 2/ 999.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 331.
(5) النّيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 280.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 108.

موقعُ جملة: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ ودلالته:

كـفرانُ النِّعمة مُستتبَعٌ بزوالها

قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ استئنافٌ تعليليٌّ، أي: إنّي أخافُ عليكم - إن لم تتَّقوا، وتقوموا بشكر هذه النِّعم - ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ في الدُّنيا والآخرة، فإنَّ كفران النِّعمة مُستَتبِعٌ للعذاب، كما أنَّ شكرَها مُستلزم لزيادتها، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ٧﴾ [إبراهيم: 7]، وعلَّل بما ذكر دون استلزام التَّقوى للزّيادة؛ لأنَّ زوال النِّعمة يُحزن فوق ما تسرُّ زيادتها، ودرْءُ المضارِّ مقدَّمٌ على جلب المنافع[1].

سرُّ تكرار الفعل: ﴿أَمَدَّكُم﴾:

أعـظـمُ الإمـدادِ للكفار ما كان لدنياهم مـالًا وولدًا

في قوله: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ١٣٣ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ﴾ أعاد فعل الإمداد مبالغةً فيما رزقهم الله تعالى من الأفضال، وما دلَّ عليه فعل الإمداد من تتابع النِّعم، وتعدادها، وهذا ما يُسمّى بـ التَّكرار أو التَّتبيع، والإرداف أن يريد المتكلم الدَّلالة على معنى، فيتركُ اللفظَ الدالَّ عليه الخاص به، ويأتي بلفظ هو ردفه وتابع له، فيجعله عبارة عن المعنى الذي أراده[2].

وعلى مذهب بعض النَّحويّين؛ فإنَّ قوله تعالى: ﴿بِأَنۡعَٰمٖ﴾ بدلٌ من قوله سبحانه: ﴿بِمَا تَعۡلَمُونَ﴾، وأُعيد العامل كقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ [يس: 20 - 21]، والأكثرون لا يجعلون مثل هذا أبدالًا، وإنَّما هو عندهم من تَكرار الجُمَل، وإن كان المعنى واحدًا، ويُسمَّى التَّتبيع، وإنَّما يجوز أن يُعاد العاملُ عندهم؛ إذا كان حرفَ جرٍّ دون ما يتعلَّق به، نحو: مررتُ بزيد بأخيك[3]،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 108.

(2) العسكري، كتاب الصناعتَين، ص: 350، وسمّاه ابن رشيق التتبيع، يقول: "ومن أنواع الإشارة: التتبيع، وقوم يسمونه التجاوز، وهو أن يريد الشّاعر ذكر الشَّيء، فيتجاوزه، ويذكر ما يتبعه في الصِّفة، وينوب عنه في الدَّلالة عليه". يُنظر: العمدة: 1/ 313.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 108.

ويجوز أن يكون ﴿أَمَدَّكُم﴾ الثّاني بدلًا من ﴿أَمَدَّكُم﴾ الأوَّل، وقد يكون من إبدال الجملة من الجملة، وتكون الثّانية صلةَ ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ كالأولى، ويجوز أن تكون الثّانية شارحةً للأولى[1].

بلاغةُ الفصلِ في قوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾:

التَّخويفُ من زوال النِّعم وإبدالها عذابًا وسخطًا

قوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ بين الجملتَيْن كمال الانقطاع؛ لاختلاف الخبريَّة والإنشاء، واللَّفظ والمعنى، ودلَّ (إنَّ) على توكيد معنى الخوف، فإنَّه سبحانه كما هو قادر على إعزاز النّاس؛ فهو قادرٌ على إذلالِهم، وقدرته على رزقهم دليلٌ على قدرته سبحانه على منع الرِّزق عنهم، وفائدةُ ذلك أنَّه انتقل من تَعداد عظيم النِّعم إلى تخويفهم من نقمة اللّٰه وعذابه، فالقادر على الإنعام قادرٌ على زوال النِّعم، وإبدالها عذابًا ونقمةً.

إيثارُ التَّعبير بالخوفِ مادَّةً وصيغةً:

الخوفُ شعورٌ داخليٌّ ناتجٌ عن خطاب النَّفس

ختم هودٌ خطابَهُ لقومه بتخويفهم قائلًا: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ تنبيهًا على أنَّه كما قدَّر أن يتفضَّل عليهم بهذه النِّعم الجسام، فهو قادرٌ على عذابهم، فيكون فيه مزيدُ حثٍّ على التَّقوى وكمال تنفر عن العصيان[2]، فدلَّ التَّخويف على تقوية الشُّعور الدّاخليِّ وتحريك ما في نفوسهم من بقيَّة الخير، وهو نفسه الشُّعور الدّاخليُّ الذي خاطبه نوحٌ عليه السلام في قومه، بقوله: ﴿لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾ الذي يفيد الرُّجوع إلى الحسِّ الدّاخلي للفرد، فالخوفُ يأتي من جهة الشُّعور الدّاخليِّ بخطر ما هم عليه من الفِتَن.

غرضُ تقديم الجارِّ والمجرور: ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾:

التَّخويفُ من إصابتهم بعذابِ الله تعالى

في قوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ لفائدة التَّخصيص؛ لأنَّ ما أنتم فيه من

(1) الزّركشيّ، البُرهان: 2/ 460.
(2) النّيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 280.

النِّعمة، مع ما أنتم عليه من الكبر وعدم الإيمان؛ إذ يُنبئ ذلك بوقوع غضب الله عليكم والإنذار بعقوبته.

دلالةُ التَّعبير بالعذاب:

التَّخويفُ من أصناف العذاب في الدُّنيا والآخرة

العذابُ هو الإيجاع الشَّديد، وقد عذَّبه تعذيبًا، أكثر حبْسَهُ في العذاب، واختُلف في أصله: فقيل: ترْكُ المأكل والنَّوم، فالتعذيبُ في الأصل هو حملُ الإنسان أن يُعذَّبَ، أي: يجوع، ويسهر، وقيل: أصلُ التَّعذيبِ إكثارُ الضَّرب بعذبة السّوط، أي: طرفها، فالتَّعذيبُ هو الضَّرب[1]، فيكون في هذه المعاني كلِّها ما يُناسب حالَ عادٍ قومَ هودٍ؛ إذ إنَّ ما أنعم الله عليهم ممّا يُستلذُّ به من الطَّعام والشَّراب نعمة عظيمة، فحريٌّ منهم أن يحافظوا عليها، ولو أُخِذَت منهم؛ لكان ذلك عذابًا عظيمًا عليهم.

الكنايةُ في قوله: ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾:

تخويفُهم من أخطر يوم يمكن أن يواجِهَهم

كنَّى هود ﷺ بقوله: ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ عن يوم القيامة[2]، فذَكَرَ الصِّفة، وأراد الموصوفَ، فالجملةُ كنايةٌ عن موصوف، وهو يوم القيامة، أو يمكن أن يكونَ كنايةً عن يوم يُهلكون فيه جميعًا، لضلالِهم وإصرارهم على الكفر، وهذا أعظمُ حدَثٍ يمكن أن يتصوَّره قومه، وما إهلاك قوم نوحٍ منهم ببعيدٍ.

بلاغةُ المجاز العقلي: ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾:

تعظيمُ اليوم دون تعظيمِ العذاب

يمكن أن يكون قوله: ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: هو اليوم الذي سيصيبهم فيه العذابُ العظيم، فقوله: ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ - بدلًا عن (عذاب عظيم) - هو مجازٌ عقليٌّ علاقته زمانيَّةٌ[3]، وفائدة هذا المجاز أنَّ تعظيمَ اليوم أبلغُ من تعظيم العذاب.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 327.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 331.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 331.

دلالةُ الاستئنافِ في: ﴿قَالُوٓاْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ﴾:

بـيـانُ سببِ الخوفِ عليهم من عذاب الله

جملة ﴿قَالُوٓاْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ﴾ لا محلَّ لها استئنافيَّة[1]؛ لأنَّها بمنزلة جوابٍ عن سؤال افتراضي يُفهم من الجملة الأولى، فاقتضى ذلك فصلًا بينهما، كما يُفصل الجواب عن السؤال، فقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، يُثير سؤالًا: لِمَ هذا الخوفُ على قومه مع أنَّه لم يذمَّهم في شيءٍ يُذكر، وما جاء آنفًا هو من قبيل استمتاعِهم بنِعَم الله عليهم، عبثًا دون شكر المنعم، فيأتي الجواب بقولهم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾؛ إذ عُلِمَ سببُ الخوفِ عليهم من عذاب الله، وعُلم حجم إعراضهم وصدِّهم عن الإيمان بالله والقبول برسالته سبحانه، وإنَّ النَّصَّ القرآنيَّ قد أوجز في حذف جمل عديدة عُلِمَ محتواها ممّا وثَّقه عليهم بقولهم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ﴾ الآية.

عودُ ضميرِ فعل القول ودلالتُه:

المستكبرون هم الذين أنكروا الرِّسالة استكبارًا وعنادًا

في قوله: ﴿قَالُوٓاْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ﴾ يعود الضَّمير في فعل القولِ على القوم المستكبرين منهم، من الذين بيدهم الحلُّ والعقد، والذين لهم الكلمة في الأرض، فهؤلاء قد أخذتهم العزَّة بالإثم، واستكبروا في الأرض، وأصرّوا على ذلك، وما لهم من أثرٍ على عامَّة النّاس في مجتمعهم؛ فالنّاس على دين ملوكِهم وكُبرائهم.

دلالةُ لفظ ﴿سَوَآءٌ﴾ هنا:

التسويةُ لعدمِ المبالاة والاستخفاف

﴿قَالُوٓاْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾؛ فإنّا لا نرعوي عمّا نحن عليه، قالوا ذلك على سبيل الاستخفاف، وعدم المبالاة بما خوَّفهم به عليه السلام[2]، فكان قصْدُهم من ذلك أنَّهم لن يستمعوا من هود عليه السلام مهما قال، ومهما وعظَ، أو أشار إليهم بالخير، وأطلعهم على أسباب النَّجاة استكبارًا منهم وإصرارًا على الباطل.

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 19/ 106.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 108.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡنَآ﴾:

انعدامُ أثرِ القول فيهم وانتفاء شعورهم به

قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ﴾، أي: سواءٌ عندنا، فلا أثرَ لكلامِكَ علينا، ولا قيمة لما تقول من الوعظ والنُّصح والتَّخويف، فلا قيمة لذلك كلِّهِ، وما ذاك إلّا لانتفاء شعورِهم بقيمة ما يُقال لهم، وهو الدّاء نفسُهُ الذي خاطَب نوح قومَهُ طلبًا في علاجه، فقال: ﴿لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾، والشُّعور يتأتّى من وقفةٍ مع النَّفس ومراجعةٍ بانفرادٍ، لكنَّهم لا يشعرون.

غرضُ الاستفهامِ في قوله: ﴿أَوَعَظۡتَ﴾:

تسويةُ الوعظِ من عدمِهِ

الهمزة في قوله تعالى: ﴿أَوَعَظۡتَ﴾ حرفُ تسوية، فتستوي عندهم الموعظة الحسنة من عدمها، وقولهم: ﴿أَوَعَظۡتَ﴾: الهمزةُ للاستفهام وفعلٌ ماضٍ وفاعله، ﴿أَمۡ﴾: حرف عطف، ﴿لَمۡ﴾: جازمة، ﴿تَكُن﴾: مضارع ناقص مجزوم بـ﴿لَمۡ﴾، واسمها محذوف ﴿مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ متعلِّقان بخبر ﴿تَكُن﴾، وهمزة التسوية وما بعدها في تأويل مصدر مبتدأ مؤخَّر[1]، ومعناه أنَّ أقوالك وإن سُمعت، لكنَّها لا تدخل قلوبنا، ولا تعيها عقولنا، ولن ينفع قولك شيئًا.

سرُّ اختيار لفظ (الوعظ) مادَّة وصيغة:

في قوله: ﴿أَوَعَظۡتَ﴾ دلَّت صيغة الماضي على احتمال المضيِّ والاستقبال؛ وذلك إذا جاء بعد همزة التَّسوية؛ إذ يُحتمل أن يكون المُراد: ما كان منك من وعظٍ، أو ما سيكون لاحقًا.

ذِكْر معادل ﴿أَمۡ﴾ في الآية:

الامتناعُ التّامُّ عن قول الرَّسول

في قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾، ﴿أَمۡ﴾: حرف عطف معادل للهمزة، وجاءت ﴿أَمۡ﴾ المتَّصلة بعد همزة التَّسويَة الواقعة بعد ﴿سَوَآءٌ﴾ في ستِّ آيات، منها قوله تعالى: ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ

(1) الدعاس، إعراب القرآن: 2/ 392.

﴿أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾[1]: والقضاء على فرصة الشعور الدّاخليِّ والتَّفكُّر بما يقوله رسولهم.

سرُّ العدولِ في قول تعالى: ﴿أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾:

المبالغةُ في التَّقليل من شأن هود عليه السلام

قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ جملةٌ وقعت موقع: (أم لم تعظ)[2]، فلم لم يُذكر ما هو أخصر، والجواب اختلافُ المعنى بين الجملتَيْن؛ لأنَّ المُراد: (سواءٌ علينا أفعلتَ هذا الفعل الذي هو الوعظ؛ أم لم تكن أصلًا من أهله ومباشريه؟) فهو أبلغُ في قلَّة اعتدادِهم بوعظهِ من قولك: أم لم تعظ[3]، فعدلوا عن (أم لم تعظ) الذي يقتضيه الظّاهرُ للمبالغة في بيان قلَّةِ اعتدادهم بوعظه عليه السلام، وقيل: في وجه المبالغةِ بقولهم إفادة معنى: سواءٌ علينا أوعظت أم استمرَّ انتفاء كونك من زمرة مَن يعظ انتفاء كاملًا، بحيث لا يُرجى منك نقيضه[4].

غرضُ التَّعريف باللّام في قوله: ﴿ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾:

الرَّسولُ هو مصدرُ التَّشريع ومحطُّ الرِّسالة

دلَّ التَّعريفُ في قوله: ﴿ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ على العموم لإرادة الاستهانة بمكانة الرَّسول؛ إذ إنَّ الرَّسول الواعظ ليس كأيِّ واعظٍ، وإنَّما منه يأتي التَّشريع، وهو يأتي بموعظته من عند الله تعالى فما يقوله أمرٌ مباشر من عند الله، وما هو بوعظ يُقبَل أو يُترَك.

غرضُ حذفِ متعلِّقِ قوله: ﴿ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾:

سرُّ الفاصلةِ في الحذف

عادل ﴿أَوَعَظۡتَ﴾ بقوله: ﴿أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾، وإن كان قد يعادله: (أم لم تعظ)، كما قال: سواءٌ علينا أجزعنا أم صبرنا لأجل الفاصلة[5]، وحذفُ متعلِّقِ الواعظين كذلك أفاد عدمَ الاكتراث بطبيعة ذلك الوعظ وعدم السَّماع له.

(1) العكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 2/ 999.
(2) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 1/ 388.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 180.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 108.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 180.

المقابلةُ بالوعظِ وعدمه:

شـمـولُ جميعِ حالاتِهم إصرارًا واستكبارًا

دلَّت المقابلةُ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ على شمول جميع حالاتهم، وتساويها في رفض كلِّ دليلٍ أو آيةٍ؛ تعنُّتًا منهم، وتغييرُ شقِّ النَّفي عمّا تقتضيه المقابلة؛ للمبالغة في قلَّة اعتدادهم بوعظه؛ وأفادت المقابلة معنى التَّحدّي والتَّعنُّت، فاستحقّوا العذاب[1].

دلالةُ اسمِ الفاعل على الاستقرار:

استقرارُ حالتهم على عدم قبولِ دعوةِ نبيِّهم

قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾، فإنَّ ذِكْرَ اسمِ الفاعل يدلُّ على استقرارِ الأمر وثبوتِهِ، بخلاف الفعل الماضي؛ فإنَّه يصدق بمرَّةٍ واحدةٍ[2]، فدلَّ على أنَّ كثرة الوعظ من هود عليه السلام لن تُجدي نفعًا فيهم، أو أثرًا في نفوسِهم، وإنما أَتَى في الآية بالجملة الثانية اسمية لأن الفعلَ يُشعِر بالحدوث[3].

جناسُ الاشتقاق في ﴿أَوَعَظۡتَ﴾ و﴿ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾:

الاستهانة بالوحي والرِّسالة

أفاد جناسُ الاشتقاق بين ﴿أَوَعَظۡتَ﴾ و﴿ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ التَّهوينَ من شأن الرِّسالة وما جاء به هود عليه السلام من الوحي؛ إذ إنَّه لا يخرج عندهم عن أقوالٍ وعظيَّةٍ؛ هم في غنًى عنها، ولن تنفعهم شيئًا، بحسب ما يرون في أنفسهم من العلم والفهم والقوَّة والسَّطوة.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البنون والأولاد:

البنونُ للذُّكور، والأولاد للذُّكور والإناث

الوَلَدُ: المَوْلودُ، يُقال للواحد والجمع والصَّغير والكبير، قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ﴾ [النساء: 11]، ويُقال للمُتبَنَّى: ولَدٌ، قال: ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ [القصص: 9]، قال أبو الحسن: "الوَلَدُ: الابن والابنة،

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 146.
(2) الأنصاريّ، إعراب القرآن العظيم، ص: 292.
(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 5/ 538.

والوُلْدُ هُمُ الأهلُ والوَلَدُ"[1]، والفرق بين الابن والولد: أنَّ الابن يفيد الاختصاص ومداومة الصُّحبة، والأوَّل للذَّكر، والثّاني يقع على الذَّكَر والأنثى، والنَّسل والذُّرّيَّة يقعان على الجميع[2].

الخوف والخشية:

الخَشْيَة خوفٌ فيه تعظيمٌ للمَخشيِّ منه

الخَوْفُ توقُّعُ الضَّرَر المَشْكوك في وُقوعه، ومن يتَيَقَّن الضَّرَر؛ لم يكن خائفًا منه، والحذرُ توقّي الضَّرَر، وسَواءٌ كانَ مظنونًا أَم مُتيقَّنًا، والحذر يدْفَع الضَّرَر، والخَوْف لا يَدْفَعهُ، ولِهَذا يُقال: خُذ حِذْرك، ولا يُقال: خُذ خوفَك[3]، والخَشْيَة: خوفٌ فيه تعظيمٌ للمخشيِّ منه، وأكثرُ ما يكون ذلك عن علم بما يُخشى منه، ولذلك خصَّ العلماءُ بها في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28][4].

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 883.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 12.
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 240.
(4) الرّاغب، المفردات، ص: 12.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والثلاثون،
سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 39 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-84-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 39 : المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-84-6
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8468153 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»